إذا أقترب الزمان ..

رواية قصيرة

ناهض الرمضاني

..

.....

.....

.....

.....

الطعمية .. ..

لله درهـا!! لا أعرف تمـامـا من هو مبتكرهـا ولا متى بـدأت هـذه الأكلـة بالانتشـــار في وطننا العربي . لكنني أرجح أن انتشـــارها قد تزامن مع ازدهار الأفكار

القومية في النصف الثاني من خمسينات القرن العشرين. وحملها المد القومي الهادر من مصر - قلب العروبة - مع ما حمله من أفكار وأحلام وأمنيات ، فانتشرت شرقا وغربا واكلها الجميع - اكتفى بعضهم بتغيير اسمها - ورغم أن ذلك التيار قد تراجع ثم انحسر منذ عقود ؛ لا بل أصبح من يدعو إليه موضع انتقاد أو سخرية. إلا أن الطعمية صمدت كحقيقة راسخة في حياة الشعب العربي من محيطه الهادر حتى خليجه الثائر - سابقا- .. متحدية بذلك الدعاوى القطرية والانعزالية والاقليمية كلها ، ومتحولة الى برهان راسخ على وحدة المصير العربي , بعد أن أصبحت ثقافة مشتركة ووجبة قومية يتناولها الجميع على السواء - بعد قليها بالزيت طبعا -.

تناولت وجبتي القومية قبل أكثر من ساعة إلا أن مفعولها مازال يسري في جسدي وكأنني قد انتهيت توا من الأكل . فما زلت اشعر بخدر في رأسي ، وتلبك قوي في معدتي . لحسن الحظ أن أحدا من الفقهاء لم يحرّم هذه الأكلة حتى الآن معتبرا إياها من المسكرات . ربما كانوا قد تدارسوا الأمر وأباحوها من باب الضرورة .فالضرورات تبيح المحضورات كما هو معروف . والأمر إذا ضاق اتسع .. وأي ضيق أكثر مما نحن فيه الآن . وربما أجيزت لأنها مما عمّت به البلوى .. لا أدري .. لا ادري تماما ولم اعد أستطيع السير أو الوقوف أو...أو حتى التفكير . كأنني ثمل بخمرة رديئة .

استلقيت في سريري المعدني وبدأت أتصفح كتابا عن الأحلام . ماذا يقول الكتاب : ((ما الضير في أن يخلد المرء للنوم **!؟** إن اعتى الطغاة لا يقوى على إصدار قرار بمنع الأحلام . اللهم إلا إذا منع الناس من النوم في بلده . وانه لمن الجنون أن يقدم المرء على مقاربة المستحيل . ومن الكفر أن يتصدى لإرادة الله والطبيعة .. فلنسع جميعنا الى تفسير أحلامنا . رجالا ونساء . شيبا وشبابا فليس ثمة ما يميز بيننا في هذا المجال ...))

كاتب متفائل .. معه الحق .. فقد عاش في قارة أخرى وفي قرن أخر . ربما كان سكان الأرض كلهم لا يتجاوزون الملايين وقتها .. أما الآن .. فما زال اعتى الطغاة لا

يستطيع منع النوم ولكن ..من منا يستطيع الآن أن يحلم ؟ أين الأحلام؟ أنا شخصيا لم أر حلما واحدا منذ ما يقرب... على.. لا أذكر .. لا أذكر تماما ولكنها مدة طويلة بالتأكيد . أنا أتمنى لا بل احلم منذ مدة طويلة برؤية حلم . حلم واحد . وقد أعددت جنب سريري ورقة وقلما لاصطياده فور رؤيته . أين هي الأحلام .؟ لعلي قد استهلكت رصيدي كله منها في مطلع حياتي . كنت وقتها لا أكف عن الحلم . لا بل أنني كنت احلم حتى وأنا مفتوح العينين . أما الآن .. فيبدو أن الأحلام قد ذهبت بعيدا.. ربما ذهبت إلى ارض الأحلام . وبقيت أنا . بقيت وحيدا بائسا على سطح هذا الكوكب المزدحم . أنام كل ليلة فيتحول ذهني الى ما يشبه الشاشة الرمادية التي تشوهها نقط بيضاء متراقصة . وحتى عندما أفيق فاني لا أستطيع فكاكا من هذا التشويش الذي يلازمني أحيانا طيلة اليوم . أين ذهبت الأحلام !! كم اشتقت إليك أيها الحلم . أيها الـــ .. آه .. الطعمية . إنها تفعل أفاعيلها .. آه ؛ لله درها . يبدو أنها تفتك بجسدي المسترخي .مددت يدي وتحسست الورقة البيضاء والقلم . فربما .. ربما.. رّب...

داهمني نعاس ثقيل وبدأ يهبط على عقلي كستار اسود يرخى ببطء وثبات . فتحت عيني بصعوبة ونظرت الى المصباح المضاء في الغرفة . كان علَي إطفاؤه لكنني كنت أوشك على السقوط في بئر النوم . أغمضت عيني فارتسمت أمام أحداقي دائرتان خضراوان لم تلبثا أن اتحدتا في دائرة واحدة, اتسعت واتسعت, وبدأت اهوي منزلقا في داخلها . حاولت التوقف أو الاستيقاظ إلا أن الوقت كان قد فات . إذ أن سرعة انزلاقي بدأت تتزايد أكثر وأكثر . خشيت أن يخرج الأمر عن سيطرتي وان تكون له عواقب وخيمة . فتحت ذراعيً محاولا إيقاف جسدي من السقوط فيما يشبه أنبوبا ضخما معتما ملطخا بسائل لزج كريه الرائحة . بدأ السائل يتدفق في الأنبوب بغزارة دافعا إياي فوجدتني اصطدم بقطع طافية هنا وهناك . أنهم أشخاص آخرون ينزلقون معي بصمت في دوامة سريعة داخل المجرى المعتم ، أوشكت رائحة السائل أن تخنقني وبدأت أميز فيه رائحة كريهة مألوفة . حاولت التوقف أو العودة من حيث جئت . تشبثت بجدران

الأنبوب إلا أن أظفاري قلعت وانزلقت مندفعا مع اتجاه التيار مصـــطدما بجســـم هنا أو برأس هناك . حاولت الصراخ إلا أن صوتي خذلني . حاولت فعل شيء ما ، إلا أنني لم أتمكن إلا من إبقاء رأســـي طافيا وســـط دوامات يخلقها تيار صـــاخب يزداد جموحا كل لحظة . بدأت أدور حول نفســـي وأنا انظر برعب إلى آخرين يبادلونني نظرات الرعب نفسـها في الوقت الذي تصـطدم فيه أجسـادنا ببقايا أجسـاد تقطعت أثناء الرحلة تجنبت رأســـا مقطوعا ودفعت عني ســـاقا منفردة وكفًا فارقت ذراعها . كانت بقايا الدماء والأشلاء تضيع وسط خضـرة السـائل اللزج الكريه وكان الأنبوب يضـيق أحيانا حتى نوشك على الاختناق ويتسع أحيانا أخرى فتزداد سرعة سقوطنا أحسست برعب شديد ملأ علي وجودي كله . ضـــاق الأنبوب وضـــاق حتى أوشـــكت على الغرق وانضـــغط جسدي منسحقا ببقية الأجساد . ها انذا أتحطم أ ..ت ..ح ..ط.. م ..

فجأة .. وجدتني اهوي في فضـاء رحب ناظرا تحتي إلى ارض بعيدة . كنت اسـقط سقوطا حرا .حاولت أن افعل شيئا ما . لكن سرعة سقوطي تزايدت وتزايدت . اكتشـــفت أنني ما زلت ممســـكا بالورقة والقلم في يدي . تشـــبثت بهما أكثر وأنا أرى الأرض تقترب مني بسرعة شديدة . بدأت التفاصيل تظهر بوضوح . سأسقط فوق مدينة . مدينة كبيرة . سأسقط وسط الملعب . كلا سأسقط قرب المدرجات . سأسقط تماما فوق صـف الأشـجار المحاذي للمدرجات . ها انذا اسقط وات .ح .ط .. تشبثت يدي بسـعفة . لا اصـدق أنني نجوت بهذه السـهولة . تسـلقت النخلة وأنا أتنفس الصـعداء . شـاهدت المئات والآلاف من الناس يسـقطون بأمان على مدراج الملعب . سـيحدث شـيء ما . قد تكون مباراة . اهتزت النخلة فاهتززت معها وأوشـكت على السـقوط . لم أكن مطمئنا لمكاني لكنني اختبـأت بين السعفات وواصلت مراقبة ما يحدث أمامي حيث كان الآلاف ينتظرون بداية عرض ما . بدأ الحماس حينما دار شـخص قصـير ممتليء الجسـم حول الميدان وهو يرتدي عباءة اغريقية يلف طرفها حول ذراعه ويمســـك بيده الأخرى صولجانا ضخما. تسلق منصة عالية في أقصى الميدان . رفع صوته مهمها بكلمات لم

أتبينها، ثم ضرب الأرض بصولجانه فدوى رنين الضربة عاليا ورجّعت جنبات الميدان صدى الضربة التي أسكتت الحشد مدة لم تطل ، إذ أن خروج أسد من بوابة جانبية أعاد إشـــعال الحماس فالتهبت الأكف بالتصـــفيق وانطلقت الحناجر تهتف هتافات صـــاخبة مجنونة . كانت الأوراق أمامي والقلم في يدي لكنني لم أتمكن من كتابة حرف واحد لأن سعفات النخلة المتحركة كادت أن تلقي بي أرضا . أمسكت السعف بيدي وبقيت محاولا التوازن وناظرا الى الميدان الذي كان الأسد يصول فيه مزمجرا بعظمة وخيلاء شديدين . لم يدم زهو الأسـد وخيلاءه طويلا فقد فتحت بوابة جانبية أخرى خرجت منها أسـراب كثيفة من جرذان سـود بدأت بالانتشـار على مسـاحة كبيرة من ارض الملعب . تراجع الأسـد خطوات للوراء ثم قفز وهو يزأر ليصـبح وسـط الجرذان التي تفرقت متراجعة مذعورة . لكنها مالبثت أن عادت وتجمعت مشـكلة قوسـا كبيرا أحاط بالأسـد من ثلاث جهات . أحس الأسـد بالخطر . تلفت حوله بحذر لكنه فوجيء بجرذ أو اثنين وقد انشـبا اســنانهما الحادة في ذنبه الطويل . ارتفع زئير الأســد مدويا وارتفعت معه صــرخات الجمهور الذي كان قد أوشـــك أن يصـــل الى ذروة الاثارة .حاولت ثانية تســـجيل هذا المشـهد المؤثر لكنني لم أتمكن من المحافظة على اتزاني . كنت اخشـى السـقوط فبقيت متشبثا ومتطلعا الى الأسد الذي كان قد بدأ هجومه على أسراب الجرذان التي تراكضت أمامه بذعر ؛ إلا أن بعضـها كان قد تمكن من القفز على ظهر الأسـد الذي بدأ يصـرخ بألم وغضب وهو يركض ملقيا نفسه على ارض الملعب متمرغا وساحقا بثقله مجموعة كبيرة من الجرذان السود . تسلقت مجموعة جرذان أخرى ظهر الأسد أو تشبثت ببطنه أو عنقه . نهض بشـــموخ ثم بدأ يركض بجنون خلف الســـرب الذي تفرق في كل اتجاه مبتعدا عن الوحش الغاضـــب المخضـــب بالدماء . ارتفع زئير الأســـد إلا أن خطواته تبـاطـأت وازداد تـدفق الـدمـاء من جروح بطنـه وظهره وعنقـه حتى تحول الى كتلـة تخضبها الدماء والأتربة وما هي إلا دقائق حتى هوى الوحش ساقطا على الأرض لتعود الجرذان بجرأة شديدة ملقية بأجسادها السوداء الكريهة عليه . قاوم الوحش الجريح دون

جدوى . اطلق صـــوتا حزينا طويلا كأنه يســتغيث . في هذه اللحظات ارتفع صـــوت الجمهور غاضـــبا محتجا فزعا من هذه المباراة غير المتكافئة . طالب الجمهور بإيقاف العرض لكن حامل الصولجان صرخ بكلمات مبهمة وبلهجة قاسية غاضبة . ثم ضرب ارض المنصـــة بصـــولجانه فإذا بالســماء ترعد وتبرق . وإذا الجمهور يصـــمت فجأة ؛ ويتحول الى حجارة . تحجر كل شـــيء . حتى الأحداق تحجرت فيها نظرات الاحتجاج والرعب بينما اســـتمرت أســـراب الجرذان بعملها . وبعد دقائق كانت الجرذان تبتعد منفضـة عن جسد الأسد الذي تحول الى هيكل عظمي لامع لم يبق من أشلائه إلا فروة رأسه وجزء من ذنبه الطويل الذي أمسكت به مجموعة من الجرذان السوداء ودارت به تسحبه حول الميدان . كانت أحداق الجمهور المتحجرة ما تزال تعي المشهد المرعب .. لكنها كانت عاجزة عن الحركة . كانت تنظر مرغمة الى ما يحدث أمامها ولا تســتطيع حتى أن تطرف وكنت قد تجمدت في مكاني وتخليت تماما عن فكرة كتابة أي شـــيء . إذ أن همي الوحيد أصـبح الاختفاء بعيدا عن أي عين . أكملت الجرذان المنتصـرة ثلاث دورات في الملعب . بعدها ضـرب حامل الصـولجان ارض المنصـة بكعب صـولجانه فأبرقت السماء وأرعدت وسقط مطر اسود كثيف أصـاب جموع المتفرجين المتحجرة . فبدأت كتلتهم بالتكســـر والتحول . وبدأت ملامحهم الآدمية تختفي لتحل محلها ملامح قرود بأذناب طويلة، وحمير بآذان متهدلة ، وكلاب لاهثة ، وأرانب مشـــقوقة الشـــفاه ، وفئران تناثرت في كل مكان . تحول آخرون الى حمامات وعصـافير طارت مبتعدة عن المكان . وأصـــبح آخرون ذئابا بدأت العواء وحاولت اصـــطياد الفرائس ألقريبة، بينما قفز آخرون الى الميدان مختلطين بالســـرب الأســـود ؛كانوا قد تحولوا الى جرذان . وانقلبت جماعة لتصـــبح دجاجات حمقاء أخذت تدور فوق المقاعد برعب غير مبتعدة عن ديكتها التي وقفت فوق المقاعد المرتفعة وبدأت تطلق أصـــواتها مؤذنه باحتجاج . ارتفع صـوت الديكة في سـماء الميدان مما شـجع الحيوانات الأخرى كلها على إطلاق أصـواتها عالية ضـاجّة مسـتنكرة . اختلطت الأصـوات وتداخلت لكن حامل الصـولجان

ضـــرب ارض المنصـــة بغضـــب فتحجر قطيع الحيوانات وعاد البرق والرعد . وعاد المطر الأسـود والبرد للسـقوط بغزارة . وبدأت كتل الحجارة تتشـظى ثانية . تكسـرت متحولة الى قطع اصـغر واصـغر حتى أصـبحت فتاتا وذرات متسـاقطة على الأرض . لكن هذه الذّرات بدأت تسـعى زاحفة على الأرض مشـكلة جماعات من النمل الزاحف ، أو أسـرابا من الذباب المتطاير.. حلقت بضـع فراشـات خافقة بأجنحتها الرقيقة محاولة الابتعاد عن المكان . اتجهت فراشـــة نحوي واقتربت من وجهي . اقتربت أكثر وأكثر حتى أصبحت أمام عينّي تماما . وقبل أن أدرك ما حدث كنت انقلب الى الوراء ساقطا من ارتفاع شـاهق . بدأت أتقلب وأتقلب في الهواء ، وكانت أوراقي البيضـاء تتطاير من حولي . بدت الأرض بعيدة جدا ، وبدا ســقوطي لا نهائيا ولكن . . وقبل أن اصـــطدم بالأرض , أمسكت يدي بسعفة . وبسرعة شديدة كنت قد تسلقت النخلة وعدت ثانية الى مخبأي وسـط السـعف الكثيف . لكن أوراقي الفارغة البيضـــاء المتطايرة فضـــحتني . فاجتمعت أسراب الجرذان السود . وبدأت تقضم بأنيابها اللامعة جذع النخلة الشـاهق ، لم يصـمد الجذع طويلا فسـرعان ما بدأ يهتز ويتمايل. سـمعت صـوت تكسـر وقعقعة ، فتمسـكت بالسـعفات محاولا إخفاء نفسـي لكن الجذع الضـخم هوى بي متحطما لا جدني جالسا على كرسـي خشبي في غرفة تحقيق ضيقة قذرة ينيرها مصباح اصفر صـغير . كنت اجلس على الكرســـي وذراعاي مربوطتان للخلف . وجســـدي متورم من آثار التعذيب .

ـ اعترف. قال المحقق ذو الرقبة الغليضة والشارب المربع.

ـ بماذا ؟؟ أجبته بدهشة يخالطها خوف وألم

ـ اعترف بأنك صاحب هذه الأوراق وهذا القلم .

ـ أنا لم أنكر ذلك . إنها أوراقي بالفعل . ولكنها وكما ترى ... أوراق بيضاء

ـ هذه هي التهمة الأشد خطورة . لقد القي القبض عليك متلبسا بحيازة أوراق بيضاء

ـ أنا .. أنا لم اكتب شيئا . قلت معتذرا بخوف

ـ هذا يعني انك تضمر شيئا لا تريد لأحد الإطلاع عليه. شيئ ممنوع . شيئ خطير . إن أكثر الأفكار خطورة تلك التي لم تكتب بعد . هذا ما تعلمناه في مهنتنا . من الأفضل لك أن تعترف وألا تتعبنا أكثر .. تكلم . اعترف اعترف .

ـ بماذا ؟

ـــــ بما كنت تنوي ألا تكتبه على هذه الأوراق. . بالأسـرار التي قررت أن تخبئها في صـدرك . اعترف . اعترف بحقدك . بتآمرك . برفضـك . اعترف . اعترف. قال وانهالت علي الضـــربات من كل مكان . لم أكن أميز تماما تلك الأدوات التي كانوا يستخدمونها لتعذيبي لكنني كنت أحس بألم منفصل لكل ضربه أتلقاها على أي جزء من جسـدي . تأكد المحقق من أنهم قد وزعوا الضـربات على أجزاء جسـمي جميعا بعدالة . شـــاهدتني فلم اعرفني . رأس منفوخ وعيون متورمة مزرقة .شـفاه متدلية وأقدام مسـلوخة . اسـتمروا بالضـرب فتركت لهم جسـمي وبدأت أدور حول نفسـي متضـــائلا حتى تحولت الى قلم صـــغير اسـود. وضـــعت نفســي خلســة فوق طاولة المحقق قرب مجموعة من الأقلام . كانت تلك هي الطريقة الوحيدة للخروج من هذا الجحيم. بعد قليل .. بعد قليل كنت استنشق هواء الحرية خارج المخفر متطلعا الى العالم بطريقة جديدة . صرت قلما في جيب شرطي قذر . آه . آه كم اعتصرني واجبرني على كتابة ما لا أريد كتابتـه . كم حقيقة زورت . وكم اعترافا كـاذبا انتزعت . وكم من يد خائفة مسحوقة أمسكت بي ووقعت مكرهة على ما لا تريد . أوشك أن يسحقني مرة بحذائه حينما حاولت التسلل لكتابة نشيد في كراسة طفل . أمســك بي واعتصـــرني حتى أفرغت ما بجوفي كله على ورق اصـــفر . ثم ...ثم جاءت لحظة عجزت فيها عن كتابة حرف واحد . تآكل ســـني ونفذ حبري فالقاني الشرطي في الشارع لا صبح عرضه لخطر كبير قادم . كانت الأرض تهتز وتهتز . وكان الغبار يعلو . أناس ..أناس كثر .. مظاهرة . سحقتني الأحذية فتحطم هيكلي

لكن روحي انطلقت وتوزعت على الجميع .. كنت مظاهرة صـاخبة غاضـبه تهدر بجنون وهي تهدد وتتوعد . كنت مظاهرة مجنونة تحاول فعل شـــيء ما . كانت المشـــاعر متأججة لكن أحدا ما كان يتحكم بي بخبث . وكان ينطقني بما لا أريد القول . عاش . عاش عاش . يسقط. يسقط. يسقط . العيون تلمع .والحناجر تهتف. والأجسـاد تتعرق .وقبضـات الأيدي المغلقة تلوّح . تصـاعد الغضـب وتصـاعد . حاولت تهدئة الموقف ,إلا أن الغضـــب اشـــتعل في الجهات كلها . حاولت لملمة أشـتاتي إلا أنني اتسـعت واتسـعت واتسـعت . انظمّ إلي نسـاء وشـيوخ . وركض ورائي أطفال وصـبية . توحدت الهتافات رغم اختلاف النوايا . توحد الغضـب. لا. لا. لا نعم . نعم . نعم . حناجر تصرخ صرخات موحدة. والأقدام تضرب الأرض . القبضـات تلوح . والحشـد يتكاثف. وكنت أسير مرغما الى مكان اجهله . حاولت أن أتوقف دون جدوى . حاولت أن أغير الهتافات فلم أتمكن . كنت' مظاهرة تسـير رغم انفها الى مكان مجهول . مكان مخيف . تطايرت المنشـــورات وغمرتني من كل مكان . انطلق رصاص ودوّى انفجار أو انفجاران . سقط البعض مضرجا بدمه . كفنوا بورق الصحف . سقطت أوراق الصحف من السماء وغطت المتظاهرين . كنت مظاهرة يسـير أفرادها كالمومياوات وقد كفنتهم أوراق الصـحف من أخمص أقدامهم ، حتى قمم رؤوسـهم. أصـبحت مظاهرة صـامتة تسـير بسـرعة الى مكان تنبعث منه رائحة نفاذه حادة . مكان تدوي فيه الانفجارات وتتســاقط فيه اجزائي مضرجة بدم يلطخ ورق الصحف دون احتجاج .

لم البث أن اكتشـفت أنني أقف عند حافة الحرب . أحسـست بالخوف . وجدتني شـابا حليقا مرتعشا ممسكا ببندقية . ألقيتها وحاولت الهرب .

ـــ جبان . ارجع . ارجع .صرخ بي مسدس ضخم وهو يصوب ماسورته الى رأسي . رجعت ممتثلا لأمر المســدس وأمســكت البندقية. كان احدهم يفعل شــيئا ما في الجهة المقابلة . ميزت رأسه . كان ما ميزته تماما هو سواد شعره . ربما كان هو الآخر يسدد

نحوي. صـــوبت جيدا ثم ضـــغطت على الزناد لاحسّ فجأة بجحيم ينفجر في جســـمي ونيران تتصـاعد خارجة من جوفي ضـاغطة بعنف على عنقي مما دفع رأســي المدبب للانطلاق بعيدا عن جســـدي الملتهب الأجوف الذي أنقذف جانبا بينما اندفع راســـي لينحشــر فجأة في أنبوب لا يكاد يتســع لمروري. لكن ضــغطا هائلا وحرارة لا تحتمل كانت تدفعني للامام. كنت انحشـــر مســـتطيلا ومندفعا_رغم انفي _ في ذلك الأنبوب الطويل المحلزن بشـكل دائري بدأت أدور وأدور مع دوران الحلزنة حتى وصـلت فجأة الى نهاية الأنبوب. انقذفت شـاعرا بسـعادة هائلة لكنني أجفلت لسـماعي صـوت انفجار مدو يعقب خروجي. لم استطع الالتفات للوراء فقد كنت انطلق بسرعة تزيد على سرعة الصـوت. حاولت السـيطرة على نفسـي وإيقاف حركتي الدورانية دون جدوى . حاولت الصعود قليلا الى أعلى أو الهبوط الى أسفل. حاولت الانحراف يمينا أو شمالا. لكنني فشلت .. فشلت . استسلمت للدوران المجنون حتى اصطدمت بالرأس ذي الشعر الأسود . عندها أحسـست - ولجزء من الثانية - بألم فضـيع ينتاب وجودي كله . غمرتني أشياء لزجة دافئة تناثرت نتيجة الاصطدام . سقطت أرضـا فشـاهدت جنديا آخر يصـرخ بفزع ((أصـيب .. لقد أصـيب .إسـعاف . اتصـلوا بوحدة الميدان)) لكن عريفا محنكا أجابه بهدوء وهو مستمر في إطلاق النار((انه ليس مصابا.انه ميّت)) أحسست بيد تقبض على قدمّي وتسـحبني لمسـافة طويلة . كان جسـمي يصـطدم بكتل الحجارة والصـخور. وكنت اعلق أحيانا في اســـتدارات الخنادق الطويلة ثم انفلت فجأة تاركا ورائي بقع دماء كبيرة متخثرة . بدأ صـوت الرصـاص يبتعد . ولم اعد اسمع إلا دوّي المدافع. عندها حملتني أربع أيد ووضعتني على نقالة . كنت نقالة قديمة مليئة ببقع دّم مسوّده. وكانت مقابضي الأربعة تئن تحت أيّ ثقل لأن خشـــبها قد تشـــظى بفعل الزمن والرطوبة والصـــدمات الهائلة التي تلقيتها في الآونة الأخيرة . أحســـت بالاشـمئزاز حينما بدأت البقع اللزجة تتسرب وتتغلغل في مسام نسيجي . لم استطع أبدا تعود هذه البقع . ما أفضـع رائحتها ! إن دفئها يبعث القشـــعريرة في أوصـــال نســـيجي المهتريء. وكحلم بعيد ، مرت ببالي

ذكريات قديمة . حينما كنت اقضي أيامي كلها مسندة الى جدار خزانة لا يفتحها احد .و ممضية وقتي كله في تأمل أحوال هذا العالم . آه . ما أقساهم . إنهم يكادون أن يقصموا ظهري . لقد وضعوا جثة أخرى فوق الجثة الأولى . لماذا يتجاهلون مشاعري . أكتافي توشك أن تنخلع .مقابضي تكاد تتكسر . آه . ما هذا الألم الفضيع .. آه . لقد فقدت مقبضا. فقدت مقبضا وسقطت الجثث على الأرض . انها ثلاث جثث وليست اثنتين كما توهمت . احدهم يسحق بحذائه على ذراعي المخلوع . يا لقسوتهم . ولكنني قد ارتاح الآن . فلا شك أنهم سيخرجونني من الخدمة لأسباب صحية .ما هذا.؟ إنهم يلقون بي هنا . أخرجوني من هذا المكان. قد تسقط قذيفة في أية لحظة . هل نسيتم خدماتي ؟؟. صرخت صرخت ..صرخ كل خيط في نسيجي القديم. لكن أحدا لم ينتبه لصرخات نقالة ملطخة بالية مبتورة الذراع . آخ . ما هذا الشيء الذي يسحق جسدي . انه ثقيل . ثقيل واسود وملطخ بالوحول. انه إطار . إطار ممسوح متعب ..إطار لم يرحمه احد .. من سيأبه لمشاعري ؟ إنني أوشك على الانفجار . لقد خفضوا الهواء في جوفي لا تمكن من السير في الوحول.. الم يلاحظوا التشققات التي تملأ جسدي .؟؟ لماذا لم يعفونني من هذا الواجب المهلك .؟

ألا يرحم أحد إطارا عجوزا أمضى حياته مربوطا بسيارة تنقل الجثث.؟ كم ميلا قطعت وسط هذا الهول. . ؟؟كم جسدا سحقت ؟؟ وكم مسمارا أنغرز في جسدي وثقبني بلا شفقة ؟؟. اما آن لهم أن يرحموا ضعفي وشيخوختي . ألا يرون أنني افعل المستحيل لا تماسك وامنع هذه التشققات من الانتشار على جسدي المنهك الذي يوشك على التمزق . إنهم يضعون المزيد من الجثث في العربة . ما أكثر الموتى اليوم . هل سأستطيع أن أكمل المشوار المتعب . يالحظي التعيس . أنا أدور هنا بينما يدور إخوتي في شوارع معبدة تغسلها الأنوار . عشرون ميلا من حجارة حادة ووحل وبرك مياه آسن حتى اصل الى شارع ترقشه حفر القذائف . سأدور وادور وأدور حتى افقد الوعي ولا اصحوا إلا على مطب يقذف بالسيارة وما فيها الى أعلى ثم تعود لتصطدم بقوة بالإسفلت ملقية ثقلا

هائلا على جســـدي . يالظلمهم وحقارتهم . ألا يفكر احد منهم أن يرحم إطارا عجوزا يوشك جسده المتشقق على التمزق ؟. ألا يفكر احد منهم بأن يرحم إطارا عجوزا قضى عمره في خدمتهم ؟. إلا يـــ .. بو .ووووو.م .. بريق خاطف وانفجار كبير . كل شيء يتطاير في الهواء ورائحة نفاذة تملأ المكان . ضغطة واحدة . ضغطة واحد على رأسي كانت كافية لإحداث كل هذا الدمار . ثم .و في جزء واحد من أجزاء الثانية ..بووووم .. كل ذلك الانتظار . كل تلك الساعات والأيام والشهور والسنوات قضت عليها ضغطة من إطار عجلة قديمة خرجت عن الطريق . ورغم أن كل شـــيء قد تم في اقل من رمشة عين إلا أنني أحسست تماما بكل ما حدث وبالتفصيل . أحسست بالعجلة المهترئة وهي تضغط على رأسي . كانت ضغطة كافية لإشعال الصاعق الذي فجر نارا صغيرة حامية جدا أحرقت جوفي كله . ملأني غضب مدمر . غضب عصف بجدران جسمي المعدني. لكنّ المعدن قاوم وقاوم .فازداد غضـــب النار وجن جنونها فاندفعت محطمة الهيكل المعدني وناســـفة ما فوقها . ومع أن ذلك قد حدث في جزء من الثانية .. إلا أن الوقت كان كافيا لأتذكر تماما شـــريط حياتي التعيس . ذكرياتي كلها مرت أمامي كحلم خاطف.. حتى تلك الذكريات البعيدة التي كنت اعتقد أنها قد غابت عني تماما منذ دهور. جســدي وهو يتجمع كأجزاء في المصـــنع . ألعجينة المتفجرة وهي توضـــع في الهيكل المعدني. الهيكل وهو يستنشق رائحة الطلاء الأخضر . الصندوق الخشبي المحكم الذي ســـكنته طويلا . الأيدي وهي تخرجني وتجمع أجزائي وتدفنني حيا في هذا القبر . ساعات الانتظار اللانهائية والخوف المستمر .. الرعب الكبير كلما مرت قربي دبابة أو عربة . رعبي الشديد وخشيتي من الانفجار حينما داسني ولأولّ مرة حيوان صغير _ كنت وقتها لغما ساذجا_ ثم . ثم أتذكر جيدا سعادتي بنجاتي وثقتي العالية بنفسي حينما أدركت أنني لغم مخصص للآليات الثقيلة ، ولست مجرد لغم صغير مضاد للأشخاص . انتهى كل ذلك في جزء من الثانية . وها انذا أتناثر في الهواء قاذفا بشـــظاياي وجحيمي الى الخارج .. ما أقسى أن يقضي احدنا حياته وهو لغم ينتظر الانفجار . تناثر كل شيء

..تناثر كل شـــيئ واحترق لحمي وامتزجت بقايا جثتي ببقاياهم لكن احدهم كان قد دون اسـمي في ورقة . ورقة انتقلت من يد الى أخرى . أضـيفت إليها أسـماء وحذفت منها أسـماء . ووضـعت ضـمن أوراق تحمل أسـماء أخرى ,ثم قام احدهم بصـياغتنا كبيان عسكري موحد . عدل البيان مرة بعد أخرى . أضيفت إليه عبارات رنانة وآيات قرانية. حذفت أسماؤنا وتم اختزالها جميعا في رقم . رقم واحد . . قلص الرقم الى النصف . ثم الى الربع . أضـيفت إليه عبارات أخرى حتى أصـبح البيان بضـعة صـفحات يرد فيها ذكرنا بشكل عرضـي . سلم البيان الى الرقيب ثم الى المدقق اللغوي الذي قام بتشكيل الكلمات . وتصـحيح الأخطاء اللغوية . تمت طباعتنا ثم سـلمنا الى المذيع الذي كان قد انتهى للتو من شـرب ملعقة زيت زيتون دافيء . تنفس بعمق قبل أن يضـاء المصـباح الأحمر ويبدأ في قراءة البيان . كان صـوته ضـخما فخما متصـنعا. وهو ينفخ الكلمات والحروف . مكثنا مدة طويلة ونحن نسـتمع بملل للمقدمة العنترية الجوفاء ,حتى جاءت لحظة الخلاص حينما قرأ المذيع وبعجالة عدد الشـهداء الوارد في البيان . تحولتُ الى حروف منطوقة خرجت من فم المذيع مخترقة شـاربه الكث . تلقفني اللاقط الضـخم الموضـوع أمامه فتسـللت عبر الأسـلاك في رحلة كهربائية غريبة تثير الدغدغة والقشعريرة في الجسم . انتقلت بين الأسلاك والمكثفات والمضخمات في رحلة سريعة معقدة حتى وصـلت الى مرسـلات بثتني لمسـتقبلات حولتني الى مرسـلات أخرى . لأنقذف كموجة تتذبذب في الهواء وتتلقفها الآلاف من أجهزة الراديو المنتشـرة في كل مكان . استمع لي بعضـهم بتركيز واهتمام . بينما لم يصـغ الكثيرون إلي . مررت عبر آذان خطيبتي التي كانت مشـغولة بتحضـير دروسـها استعدادا لخوض الامتحانات التي سـتحدد مسـتقبلنا . .مررت عبر آذان ربات بيوت مشـغولات بتحضـير الطعام أو بكي الملابس . اسـتمعني عمال منكبون على أعمالهم . وموضـفون عاكفون على مكاتبهم . أشـخاص يلعبون النرد في المقاهي . أو يقودون سـياراتهم في طرق مزدحمة أو خالية . مررت بهؤلاء كلهم دون أن أثير انتباه احد . دون أن اعني شـيئا ما لا حد ما . كانت

الحياة تسيركما كانت تسير دائما .وكنت مجرد موجة تتذبذب في الهواء . موجة تتذبذب .. حتى مررت بسمع أمي التي كانت تتنفس الصعداء وتشعر بفرح خفي . وسعادة مبعثها الخلاص . خلاصي من ساعات الحزن والألم التي كانت تتملكني قبل انتهاء اجازاتي العسكرية. سعادة مبعثها انتهاء خوفي الشديد من العوق أو الموت . ونهاية لآلامي وعذاباتي التي صاحبتني طيلة السنوات الاخيرة . لم يعد هناك مبرر للقلق . لم يعد هناك انتظار . لم يعد هناك خوف مما سيحدث . فقد حدث أسوأ ما نتوقع وانتهى الأمر . لكنها شعرت بحزن مفاجيء حينما تذكرت نفسها. ستقطع ما تبقى من رحلة العمر وحيدة دون معين . ما اشد حاجتها إلي الآن ، وغدا ، وبعد غد . من سيعينها في شيخوختها . أين الأحفاد الذين حلمت بهم . لعلها ستتبعني سريعا وترتاح مثلي . لم تتمالك نفسها. رغم إرادتها القوية لم تتمالك نفسها فسقطت من عينيها دمعة وأخرى وأخرى . كنت دمعة دافئة تسيل ببطء على خد أمي الذي حفرته السنين الصعاب . انحدرت متجاوزا الأخاديد حتى سقط جزء مني على الأرض . انهمرت ثانية وثالثة . كنت دموع امرأة صامتة . كنت دموع يأس .وكنت دموع حيرة. وكنت دموع عتاب ... مسحتني أمي بطرف كمها فأصبحت دمعة تبلل ثوبا قديما . لم استطع البقاء على كمّ الثوب رغم تشبثي . فالدموع ماء .. والماء يتبخر . بدأت بالتبخر والصعود الى أعلى.. حاولت البقاء في المنزل ..منزلي . إلا أن نسمة هواء قذفتني خارجا عبر النافذة المفتوحة. حاولت العودة دون جدوى . بدأت اصعد واصعد الى أعلى . لم يكن هناك غيمة لانضم إليها. لم يكن هناك إلا آلاف الدموع المتبخرة العاجزة عن تشكيل سحابة واحدة صغيرة. كنت ذرة في بحر الدموع الصاعد الى السماء . لكن بريقا غريبا شدني الى أسفل . كان بريق مئذنة مذهبة . درت حولها وحول القباب لأجد نفسي ضريحا يطوف حوله عشرات الأشخاص . مئات الأشخاص . كانت أكفّهم تتمسح بالشّباك الفاصل بيني وبينهم . مددت يدي إليهم فحال الشبّاك دون تلاقي أكفنا . حاولت أن افعل شيئا ما لكل الأرامل والكهول والثكالى الذين كانوا يطوفون حولي . للأيتام الذين

يتطلعون إلي بتوســل ورجاء مبهم . للشــباب الذين يدورون ويدورون حولي بحثا عن الخلاص . حاولت أن افعل شيئا ما لنساء متشحات بالسواد . لمواكب تحمل النعوش. لتلك الطفلة .. تلك التي ترتعش بين ذراعي والدها برأسها الضخم وعينيها الجاحظتين . وأطرافها الهزيلة المرعبة . كنت أريد من أعماقي شــفاءها من تلك الأورام . حاولت جاهدا أن أتسلل من أي مكان لفعل أي شيء . حاولت حاولت حاولت . لكنني عجزت . فشلت .. لم استطع .. لم استطع إلا.. إلا أن أتحول الى ألم . .. ألم كبير تنامى واتسع وانتشر ليغطي سماء البلاد كلها. أصبحت سحابة الم متحركة تلقي بظلها على الجميع . انثنيت على نفسي وحاولت جاهدا التحول الى رجاء . رجاء أو أمل .. لكن المطر الذي تساقط أذابني ونقلني معه الى باطن الأرض . انتشرت في كل مكان . رويت الحقول وشربتني الحيوانات. أصبحت جزءا من دورة الألم في الطبيعة . حاولت أن أتحلل في التربة وأتلاشى . حاولت . لكنني - ورغم انفي - بدأت أنمو ثانية . بدأت أنمو بوجع بعد أن سقاني الألم ماءه المر , وغذتني أسمدة كيماوية حارقة, ولوثني إشعاع سلاح محرم . تنفست هواء يلطخه التراب . لكن ساقي عاد ليمتد عاليا , ونمت على جانبيه أوراق خضــراء طرية تتطلع نحو الشــمس وتفتح أذرعتها في دعاء غير مســتجاب . بقيت جذوري مغروسة في الحزن تشرب مياه الألم . استدرت وتكورت متحولا الى ثمرة ســوداء . ثمرة ازرقّ ســوادها واحمر . لكن قلبي بقي ابيضــا رغم حرائق الأســمدة الصناعية .. جمعت المي فتحول الى بذور صغيرة شديدة المرارة . لم ادر كيف أتخلص منها, فانطويت عليها وبقيت انتظر صــابرا حتى قطفتني يد فلاح متعب . وبعد رحلة قصيرة كنت استقر - مع كثير من أصحابي - على سطح عربة خشبية متداعية في سوق شعبي . نظر الكثيرون إلي . سأل آخرون عن سعري ومضوا . كان الجميع يكرهني . لكنهم كانوا لا يستطيعون الاستغناء عني . كنت المس ذلك في نظراتهم وفي تصرفاتهم أحسست تماما بعمق كراهيتهم لي . بدأ أصحابي بالتناقص بسرعة . وكنت قد خبأت نفسي في أقصى العربة . نجحت في الإفلات من قبضة عجوز متقاعد قلبني

طويلا فكرمشـــت جلدي - والرعب يملأني - حتى عافتني نفســـه . لم يبق على ســـطح العربة إلا القليل . كيف ســـأنجو بجلدي من هذا المتســـول الملحاح الذي يلجّ في ســـؤال البائع ويتوسله . درت حول نفسي عدة دورات حتى سقطت على الأرض . أوشكت أن أهرس لكنني نجوت من قبضة المتسول اللجوج .. ما هذا ؟؟ يد قوية تمسك بي وتلقيني في سلّة. امرأة متوسطة السن قررت الشراء . حزمت أمرها بسرعة فجمعت ما تبقى وضـبطتني وافشـلت خطه هروبي . هل سـأسـتطيع القفز من السـلة ؟ تبدو امرأة قوية الشكيمة وشديدة الحرص . كانت تسير بسرعة وتشتري أشياء متنوعة وتلقيها فوقي . لا أكاد أتبين طريقي . إنها تسير بسرعة والسلة تهتز . أحس بغيثان . لا بل أحس برعب شـــديد داخل هذه الســـلة المظلمة . كم اكره ألاماكن المغلقة . هاهي ذي تتوقف أخيرا وتضـــع الســـلة على شـــيء ما . ما هذا إنها تقلبنا . أين أنا ؟ انه مطبخ . مطبخ صـــغير عاري الجدران مرتفع السقف فقير التأثيث . هل ستضـعني في الثلاجة ...؟ ليس لديهم ثلاجة. ما هذا . انها تلقي بي تحت شلال ماء بارد .. تمسك سكينا حادة وتقطع قلنسوتي . تعيدني ثانيه الى الحوض تحت الحنفية .. لسـت مطمئنا . لا بد أنها تخطط لفعل شـيء ما . هذه فرصـــتي الأخيرة للهرب. ما هذه الطرقعات . هذا صـــوت احتكاك خفيف .لقد .لقد أشعلت النار إنها تصب الزيت في مقلاة .. كيف سأنجو ؟؟ كيف سأنجح في تسلق جدران هذا الحوض .. المياه توشـــك أن تغرقني .. ها قد عادت وأطبقت على عنقي .. إنها تقطعني ..آه.. جســـدي يتحول الى حلقات.. ســـفاحة .آه. ما أقســـى هذا . انها ترش الملح على جراحي. إنها مجرمة حرب . سادية . أين منظمات حقوق الباذنجان .. لكنني سأنتقم . احذري غضبتي أيتها المرأة . سأسبب لكم الحساسية.سوف... اه .. يا الهي .. ما هذا .. ستلقيني في الزيت الساخن.رائحة الزيت . ابخرته. ..النار.. لاتلقيني في النار . ارجوك . احذري.سأنتقم . سأهاجم القولون . سأهاجم كل شيء . اقسم بالـ .. لا لا لا . ـ استيقظ . استيقظ . ما الذي يحدث لك .

فتحت عيني على وجه زوجتي والرعب مازال يملأني

ـ ماذا بك كنت تتكلم في نومك.

ـ رأيت حلما غريبا.

ـ سيكون من الغريب ألا ترى أحلاما غريبة.

ـ تلك المرأة!

ـــ أي امرأة ؟؟ قالت ومضت تسوّي أغطية السرير بلامبالاة لم نتبادل قبله الصباح - فنحن متزوجان منذ مدة طويلة- . لم اخبرها بالطبع بأنني كنت قد تحولت الى باذنجانه وآن امرأة أوشكت أن تقليني . اغاضني كثيرا أنها لم تأبه لذكري تلك المرأة. سرت' مغمض العينين وأنا أحاول تذكر التفاصيل الكثيرة التي حلمت بها . غسلت وجهي وأبدلت ملابسي وبدأت بتناول الإفطار وأنا نصف نائم. مضغت الخبز الأسمر المزرق وكأني امضغ الصبار . حاولت دفعه بجرعات شاي التموين الأسود . انتهيت من الإفطار فبحثت فورا عن نصف السيكارة الأخير الذي كنت قد احتفظت به قبل النوم في مطفأة السكاير . كانت زوجتي توشك أن تفرغ المطفأة في سلة المهملات. أنقذت عقب السيكارة الذي لم أكن لأكمل استيقاضي لولاه . تمتعت بالتدخين. ثم مسحت الغبار عن حذائي العتيق فبرزت تشوهاته أكثر وأكثر . نظرت الى المرآة .. كانت بدلتي قد حال لونها .. وتهدلت جيوبها .. وبدأت أكمامها بالتآكل.. نظرت الى وجهي كان الصلع قد بدأ يسرع خطاه منافسا الشيب . وكانت عيناي تختفي تحت تغضنات وجيوب وتجاعيد ظهرت قبل أوانها . ولكن.. ألقيت نظرة عامة كان كل شيء مقبولا .. مازلت جذابا.. مازال لي معجبون .. غمزت لنفسي قبل أن اترك المرآة لاتجه بهدوء الى غرفة الأطفال .. كانا نائمين . رغبت بتقبيلهما إلا أنني خشيت أن يستيقظا .. ربما كانا يحلمان أحلاما سعيدة.. أحلام لن أستطيع تحقيقها لهما . خرجت بهدوء شديد كما دخلت . غادرت المنزل سائرا الى موقف الحافلة. كانت أنوار الشارع ما تزال مضاءة . والشمس معلقة قرب الأفق . انتظرت الحافلة طويلا إلا أنها لم تأت. قررت السير حتى المحطة التالية. فالمشي رياضتي المفضلة .. والوحيدة أيضا . سرت على مهل في طريق خال

من العربات والأشخاص . ورغم لسعة برد خفيفة إلا أن الجو كان صافيا .كانت الريح ساكنة والغيوم ثابتة كأنها قد سمرت في السماء. انتظرت الحافلة طويلا في المحطة الثانية. إلا أنها تأخرت كثيرا عن موعدها . نظرت الى ساعتي الرخيصة . لم يفاجئني أنها كانت متوقفة عن العمل . سرت من محطة الى أخرى حتى وجدت نفسي قريبا من محل عملي . أكملت طريقي ماشيا ثم تسللت بخفة الى مؤسستي . لا شك أني قد تأخرت كثيرا عن موعد العمل . دخلت الى مكتبي لكنني لم أجد زميلاي اللذان يشاركاني الحجرة . كان عملي يقتصر على استلام أوراق من احدهما ثم أقوم بتسجيل بياناتها في سجل ضخم لاسلمها بعد ذلك للموظف الآخر . ولما كان من استلم منه الأوراق ومن أسلمه الأوراق غير موجودين.فقد كان من المستحيل علي القيام بأي عمل بدونهما . جلست خلف منضدة المكتب واضعا راسي بين راحتي ومتذكرا تفاصيل الحلم الغريب الذي رأيته , ومحاولا إيجاد علاقة ما بين تلك التفاصيل. مضى وقت طويل والسكون يلف المكان . لا موظفين . لا مراجعين . حتى البواب لم يكن موجودا حينما دخلت المبنى . تذكرت أن الشوارع التي قطعتها كانت خالية من المارة تماما . بل ومن السيارات . الحافلة التي لم تأت . الشمس . الشمس التي كانت ثابتة في مكانها منذ أن غادرت المنزل حتى وصلت الى مؤسستي . لعل اليوم هو الجمعة. لكن زوجتي لم تقدم لي بيضه أثناء الفطور . وهذا ترف نحرص جميعنا عليه كل يوم جمعة.

ما الذي يجري بالضبط . نظرت الى غرفتي . لم تكن هي الغرفة نفسها التي اعتدت العمل فيها . نظرت الى مكتبي . لم تكن منضدة مكتب . كانت مجرد طاولة صغيرة عليها منفضة سكائر . نظرت الى الشباك. لم يكن هناك شبابيك . كان هناك أبواب . أبواب كبيرة موصدة فحسب . أحسست أنني قد وقعت في فخ. نهضت قافزا نحو احد الأبواب . حاولت فتحه بكلتا يدي ففشلت . انتقلت الى الباب الثاني والثالث والرابع . لا جدوى .. الأبواب مقفلة بشكل محكم . صرخت طالبا النجدة . لكن صوتي بقي حبيس حنجرتي . صرخت وصرخت دون جدوى . هجمت على احد الأبواب

محاولا تحطيمه أو فتحه بالقوة .. قرعته حتى أدميت راحتي إلا أن أي صوت لم يصدر رغم شدة ضربي . ورغم كل الألم الذي اصابني . كنت قد ادخلت نفسي في مصيدة وكان عليّ الخروج منها . تلفت حولي . كان شيئا ما يحدث . كانت الغرفة قد بدأت تصغر وتصغر . عدت ثانيه لقرع الأبواب ضربتها بقدمي حتى تفتح حذائي المهتريء. واصلت الركل فوجدتني انظر فجأة من تحت الباب . كانت هناك فسحة تكفي بالكاد لمروري. لم أكن إلا فردتي حذاء عتيق تقطعت خيوطه واهترأ جلده. تسللت خارجا - بفردتي - وراكضا نحو السلالم ثم الى الباب الخارجي . بدا الطريق غريبا أمامي . فانا لم أشاهد المدينة أبدا من هذا المنظور . ربما لم تكن هي مدينتي ذاتها . احترت في اختيار الطريق الذي اسلكه . ومع هذا فانا لم أتوقف لحظة واحدة عن المسير . كنت أسير وأسير رغم صعوبة الطرقات التي أمر بها . وكنت أقف محتارا وسط التقاطعات الكثيرة التي كانت تملأ المدينة . لكنني كنت أواصل السير دون تردد ودون معرفة مسبقة بالمكان الذي انوي الوصول إليه . لم يلحظني احد - فقد كنت مجرد حذاء قديم - لكنني شعرت بتعب شديد حينما وجدت أن كل الطرق إما أن تكون طرقا صاعدة صعودا حادا اعجز معه عن مواصله سيري . أو يجعلني انقلب على ظهري ساقطا الى الخلف أو كانت طرقا هابطة تجعلني أتسارع مرغما حتى افقد توازني واسقط منكفئا على وجهي وهاويا نحو نهاية الطريق الذي تقطعه مفترقات طرق أخرى . واصلت السير دون توقف ودون أن اصل الى مكان ما . مشيت مشيت حتى أوشك نعلي أن يذوب تماما لأجد نفسي فجأة قرب مؤسستي التي غادرتها هاربا منذ مدة طويلة.. أدركت تماما حجم ورطتي .. فقد كنت أسير في دائرة . دائرة كبيرة . أصاب الوهن جلدي كله وتهدل شريطي وأوشك نعلي على التمرد والانفصال . لكنني تماسكت وقررت أن أجد حلا حاسما لهذا المأزق المرعب.

التفت الى الشمس . كانت ما تزال ساكنة في محلها ذاته . وضعتها على يميني وبدأت مسيرة جديدة . مسيرة هادئة بطيئة لكنها واثقة... تنقلني بثبات نحو الشمال .

أحســسـت بغصــته حينما تذكرت كروية الأرض . قد أعود ثانية لأجد نفســي أمام مبنى المؤسسة لكن فردتي الثانية طمأنتني الى أنني ربما سأصل الى محطة ما قبل أن أعود لأكمل الدائرة . ارتفعت روحي المعنوية فبدأت رحلتي بنشـــاط . كان هناك أمل جديد . آمال جديدة عريضة وثبت في مسيري وأنا اصفر لحنا رحبانيا وعشرات الأفكار تدور في ذهني الذي بدأ يتقد ويتقد . مشـيت مشـيت مشـيت حتى بدأت اشـعر بالتعب . بدأت خطواتي النشـــيطة تتباطأ رغما عني. تلفت حولي لأفاجأ بأنني ما زلت في نفس المكان . المشهد نفسه تماما. المباني نفسها . الشوارع نفسها . الرصيف نفسه . عدت للهرولة فالركض لكن المشهد لم يتغير . كان الرصيف يرجع للخلف كلما تقدمت خطوة للأمام . ركضـت بأقصـى طاقتي . ركضـت حتى ذابت مؤخرة نعلي .. كم مرة تعثرت بشـــريطي . وكم مرة اصـــطدمت بفردتي الأخرى .. لكنني . ورغم كل هذا الجهد لم استطع مغادرة مكاني . بدأت الهث وبدأت أنفاسي تتسارع وتتسارع حتى أوشك قلبي على الانفجار . توقفت وقد تملكتني نوبة سعال شديد . كنت قد ركضـت مسافة طويلة جدا رغم أني لست حذاء رياضيا . بذلت أقصـى جهدي . فعلت ما لايستطيع فعله حذاء ركض فاخر ، وأنا مجرد حذا محلي . ولكن لا فائدة .. وفي محطة حافلات يبدو أنها مهجورة ككل شـــيء في هذه المدينة . في تلك المحطة . وقفت متكئا على فردتي الثانية والحزن يملؤني . لا ادري كم لبثنا هناك . كنت أتنفس بعمق وأنا مغمض العينين حينما أحسست بجسم ضخم يقف أمامي فجأة دون أن يصدر صوت ما . كانت حافلة كبيرة قد فتحت بابها بعد أن توقفت في المحطة .

لم تكن المحطة مهجورة إذن . قفزت بســـرعة الى الداخل واخترت مقعدا قرب الشباك وجلسـت ناظرا الى الشـارع . انسـابت الحافلة بلا صـوت .. ها انذا اجلس في حافلة أنيقة تجتاز شـوارع مضـــاءة يغسـلها مطر خفيف تنســاب قطراته بنعومة على الزجاج .. أنا أداعب بين أصـابعي زهرة نرجس صـغيرة . وناظرا بين فترة وأخرى الى سـاعتي ... سـأتاخر ثانية عن اللحاق بالمحاضـرة الأولى. لا يهم .. سـأذهب الى

المكتبة .. المكتبة . سأجدها هناك وسنكون معا بمفردنا على الأغلب.. فالوقت مبكر . تحسست ربطة عنقي الحريرية. وزررت سترتي الداكنة الزرقة . اعتقد أنها ستكون بمفردها . فما زال الوقت مبكرا على مجيء الباحثين . سأقرأ لها كتاباتي وستقرأ لي خواطرها . قد أنافقها قليلا.. لن أقول لها الآن رأيي بصراحة فيما تكتب . سيغضبها ذلك . أظن أنها تكتب ما تكتب من اجلي .. بقي لي شهور وأتخرج. سأنهي دراستي أخيرا . سأواجه الحياة . سأعمل . لا . قد أستطيع الحصول على منحة . نعم سأكمل دراستي في بلد آخر . في عالم آخر .. أما هي فستبقى في المكان نفسه . مجرد موظفة بسيطة في مكتبة . فتاة طيبة.. أتمنى أن تجد لها فرصة أخرى . نظرت ثانية الى الساعة . سأصل في موعد المحاضرة تماما .. لن أتأخر إذا . حملت كتبي بعد أن ألقيت الزهرة على الأرض . توقفت الحافلة ثم انطلقت ثانية.

ـــــ إنها تنظر إليك . قال صديقي بصوت يشتعل حماسا . التفت الى صف المقاعد المجاور فوجدتها تنظر الى النافذة .

ـ انت تكذب قلت لصديقي القصير ذي الشعر المنكوش .

ـ اقسم بالله إنها كانت تنظر نحونا قال لي بصوت واطىء متهدج .

نظرت إليها ثانيه فضبطتها وهي تنظر نحوي بعينيها العسليتين . وما إن تلاقت عينانا حتى احمر وجهها وحاولت الالتفات تهربا مني إلا أنها تماسكت وبقيت تنظر إلي مبتسمة ابتسامة لا تكاد ترى . أوشك قلبي على التوقف .. لم ادر كيف أتصرف . إنني انتظر هذه الابتسامة منذ شهور . همست بأذن صاحبي الذي كان يحبس أنفاسه ويحاول إبقاء نظره مصوبا الى الأمام كي لا تثير ريبة الركاب . همست بأذنه قائلا

ـ إنها تنظر نحوي فعلا .

لم يستطع بعدها أن يمنع نفسه من الالتفات . أدار رأسه بسرعة نحوها ثم خاطبني هامسا بصوت مرتعش

ـ لقد أثرت انتباهها . نجحت الخطة . عليك أن تنفذ الجزء الثاني فورا .

ـ لا ..صرخت هامسا في أذنه .

ـ أنت جبان .

ـ أنت متهور

ـ لم تعد صغيرا . لسنا صغارا الآن .. سننهي دراستنا الثانوية بعد سنتين .

ملأني كلامه بالثقة . نظرت الى انعكاس وجهي في زجاج الحافلة. تأملت باعتزاز الخط الرفيع الذي بدأ ينمو فوق شفتي العليا . أنا رجل رجل بشارب . وبعد عامين فقط سـأنهي دراسـتي الثانوية . وتلك الفتاة الجميلة التي تجلس هناك تحبني . تحبني أنا ... اما انا .. اه .. سأتزوجها . اقسم بالله على ذلك .

ـ نفذ ما تبقى من الخطة قال صاحبي المندفع

ـ لنؤجل ذلك اليوم اجبته بتوسل

ـ قد لاتتاح لنا فرصة اخرى . عليك فقط أن تمر بقربها .. ثم وبكل بساطه الق بالشريط اليها .

ـ وما ادراك انها تحب عبد الحليم .

ـ هل انت مجنون . اهناك احد لا يحب عبد الحليم : قال صاحبي باستغراب .

ـ وكيف أتأكد من أنها ستفهم الرسالة .

ـ عبد الحليم سيتكفل بذلك . حبك نار .. نااار . انهض ولا تكن جبانا .

ـ وكيف أتأكد انه نفس الشريط ؟ سألته وأنا ابحث لنفسي عن أي عذر للتهرب .

ـــ كيف تتأكد .. لقد سمعناه أمس عشرة مرات . انهض قبل أن نصل نهضت متعثرا بخطواتي . تثاقلت وأنا اصـل قرب مقعدها . وبأطراف أصـابعي مددت إليها الشـريط وقبل أن أسـقطه اهتزت الحافلة قليلا ..ثم توقفت في محطة ما ووجدتني اجلس على مقعد منفرد احتضـن كيسـا من الموز وأنا منهمك في قراءة (كنوز الملك سـليمان) أخرجت موزة من الكيس وبدأت آكلها ببطء وتلذذ وذهني يسـرح مع المغامرة العجيبة . كهوف وصـحارى ، ذهب وأشـرار ، أبطال وسـاحرات . انتهت الموزة . كنت أريد أن

آكل واحدة أخرى إلا أنني كنت قد استأذنت أبي وسمح لي بأكل موزة واحدة فقط. وقد أكلتها ووضعت القشر في الكيس . كان قد حذرني من رميه على الأرض . ولن افعل شيئا كهذا . سأرمي القشرة في سلة المهملات . أنا صبي مثقف ارتدي بنطلونا قصيرا بحمالات وقميصا مكويا وشعري مسرح بعناية شديدة . متفوق في دراستي ولا أخالف أبدا أبدا وصـــايا أبي . لكن الكتاب مثير. هل بقيت كنوز في العالم ؟ ربما عثرت على كنز .. لا . لن ابحث عن الكنوز . علي أن اعمل . أن أقوم بشـــيء يفيد الإنســانية مثل ذلك الطبيب الذي عاش مع الفقراء في إفريقيا . ســأصــبح مثله واخدم الناس . نســيت اسمه ولكنني سأصبح مثله إنسانا عظيما يفيد الناس كلهم ولن ابحث عن الكنوز . أنا لست طماعا . ربما سأكتشف قارة جديدة ..نعم .. قد أصبح مكتشفا . ولكن هل سيبقون لي أراضي لاكتشفها حين اكبر ؟ ام انهم سيكتشفونها قبلي ؟ نظرت الى الكيس .. كان أبي قد طلب مني إيصال الموز الى البيت . وسمح لي بأكل موزة واحدة . لكنه لم يحص أصابع الموز . أنا متأكد من ذلك . وأنا أحب الموز . لن ارمي القشرة على الأرض .. مددت يدي ثانية والتقطت موزة أخرى . فاهتزت الحافلة قليلا قبل أن تتوقف . كنت اجلس في مكان وثير جدا . لم يكن مقعدا عاديا. كانت الحافلة تتهادى ببطء وكنت اجلس في حضن أمي. كانت تلف وجهي بطرف عباءتها وتنظر لي وتبتسم بسعادة . وكنت ابتسم بفم خال من الأسنان . كانت الشمس تظهر وتختفي . وكانت الأشياء تمر بسرعة عائدة الى الخلف . ما كان ثابتا هو وجه أمي . ابتسامتها . أسندت رأسي الصغير الى صدرها مستنشقا رائحتها ألمميزة . أغمضت عيني مستسلما لإغفاءة لذيذة . لكن أشعة الشمس ضايقتني . أغمضت عيني بقوة .. لم اشعر بالراحة . أدرت وجهي لكن الشمس ضايقتني . فتحت عيني بصعوبة فأعمى وهج الشمس بصري . نهضت بتثاقل وأنا لا أكاد أميز طريقي. صرخ بي الركاب يحثونني على الإسراع . لكن جسدي المتداعي كان يرفض الحركة . كانت قدماي بالكاد تحملانني . وكان ظهري المتيبس يرفض الانتصاب . كنت احمل بيدي كيسا مليئا بأمتعة ثقيلة . جررت خطواتي وسرت بقامة

منحنية متداعية على أرضيه متهالكة لباص قذر . نفذ صبر السائق فحرك الباص قليلا للامام . اهتززت وأوشكت أن اسقط منكفئا على وجهي . ألا يرحم احدهم شيخوختي . أسرعت ما وسعني الإسراع ويمناي تجر الكيس الثقيل . توقفت للحظات على السلم . لم اعد أستطيع التنفس . وضعت قدمي اليسرى على الأرض وحاولت سحب الكيس ورائي إلا أن الباص تحرك .. سقطت مصطدما برصيف قذر تحت أشعة شمس تموزية مهلكة . أصبحت غير قادر على تحريك جسدي . صرخ بعض الركاب إلا أن الباص سار مبتعدا وهو ينفث سحبا من دخان اسود . لم يأبه لي احد . حاولت جاهدا النهوض ، لكن جسدي الكهل رفض أن يطاوعني . سحبت يدي بصعوبة محاولا حجب أشعة الشمس عن عيني . اكتشفت أن يدي الملتوية ورائي ما زالت ممسكة بالكيس . شعرت بألم كبير . شعرت بمهانة كبيرة . شعرت بيأس. يأس . لا.. تركت الكيس ونهضت صارخا ملء وجودي .... لا.... دوت الصرخة في كل مكان . ..لا.. . صرخت فتوقف كل شيء حولي . أحسست بأشخاص يركضون نحوي .هربت بسرعة لكنني أحسست بخطواتهم تدنو مني أكثر وأكثر . قفزت عاليا فإذا بي اصعد واصعد . وإذا بالمدينة تحتي تصغر وتصغر وتتلاشى . المدينة .. مدينتي . القباب المآذن . الحدائق الشوارع البيوت . مدينتي .. المنازل . ذلك المنزل . بيتي .. آه . بيتي كنت أطير منقذفا ومبتعدا عن المدينة . حملتني الرياح الصاعدة عاليا عاليا وأنا أتمزق بين اليأس والرجاء . لا . صرخت ثانية فارتفعت أكثر وأكثر .. استطال جسدي وهو يندفع مخترقا السماء . ثم بدأت اهبط . كم خشيت السقوط والتحطم .. تماسكت ... تماسكت أكثر وأكثر كلما اقتربت من الأرض . تماسكت حتى اصبح جسمي بصلابة الفولاذ.

هاهي ذي الأرض تقترب . تقترب . ها انذا اسقط منغرزا في الرمال. وهاهي ذي كف فارس عربي تمسك قبضتي وتسلني من الرمال لتبارز خصما باغتها . كنت سيفا .. كنت سيفا عربيا مقوسا في كف قوية . درت بسعادة في الهواء قبل أن اضرب سيفا عريضا مستقيما يحمله مقاتل صليبي . ضربته ضربات خفيفة ثم حاولت مفاجأته بطعنه

قاتلة . انحرف المبارز برشاقة وضربني سيفه ضربة آلمتني . حاولت الاقتراب أكثر . الانقضاض والاشتباك . كنت اشتعل حماسا وأنا اسمع صيحات المحاربين تعلو من كل مكان . الله اكبر . الله اكبر . اقشـــعر معدني وازداد بريقي . الخيول تصـــهل الرماح تتطاير من كل اتجاه . الســـهام . كرات النار التي تقذفها المنجنيقات . أخيرا ســـأقاتل . سأقاتل . حاولت أن أطعن . أن أصيب خصمي في مقتله . لكن القبضة القوية الممسكة بي كانت تمنعني من ذلك . وحتى حينما كنت أغافلها وأضـــرب بقســـوة . كان معدني ينثني . وكان سيف الصليبي ينثني ويتلوى أيضا . فكرت بحل سريع . كنت أخشى أن تنتهي المعركة قبل أن افعل شيئا ما . إنها فرصتي . طعنة مستقيمة في العنق . ترقبت الفرصة طويلا وأنا ألاعب السيف الآخر . ثم اندفعت بجنون نحو عنق المبارز .

ـــــ ستوب . برافو . اطبع .. صرخ احدهم وأحكمت اليد سيطرتها علي وجمدتني وأنا أوشك أن أنفذ في الرقبة . ساد السكون ارض المعركة للحظات ثم تغير كل شيء . قام الموتى، ونهضت الخيول المتســـاقطـــة . سقطـــت جدران المدينة المحترقة ، وسار المقاتلون - جميع المقاتلين - معا وهم يتبادلون احاديثا عادية.

ـ أوشكت أن تخدشني . قال المبارز الصليبي .

ـــــ لا ادري ماذا حدث تماما . ربما اندمجت كثيرا في الدور . أجابه الفارس العربي معتذرا .

ـ حسنا عليك أن تكون أكثر حذرا في المرة القادمة .

ـ لا تخف .. نحن محترفون .

القوني مع سيوف وأسلحة ومعدات كثيرة أخرى في مستودع كبير تسوده الفوضى . وكان السيف المستقيم ينظر إلي مبتسما ابتسامة هازئة .

ـ أنت سيف ناشيء .. لعله دورك الاول . هززت مقبضي بخجل مؤيدا كلامه.

ـ انتبه اذا فعلت ذلك ثانيه فقد تكسر نفسك.

ـ اكسر .. أكسر بهذه البساطة . الست سيفا حقيقيا ؟.

ضحك السيف المستقيم ضحكة طويلة . ثم تمتم بحزن

ـــ كلنا سيوف زينه . اكسوارات يدوية . لا أكثر ولا أقل . أتظن نفسك قادرا فعلا على الطعن . لو فعلتها فستنكسر . ستنكسر أو أنهم سيكسروك . في المرة القادمة عليك أن تكون أكثر حذرا.

ـ لكنني أوشكت أن اطعن الصليبي في رقبته .

ـــ أي صليبي .. أنه مجرد كومبارس مسكين يؤدي دوره المرسوم .. لماذا كنت تريد طعنه .

ـ لاحمي المدينة .

ضحك السيف حتى سقط على جنبه محدثا قعقعة كبيرة .

ـــ تحمي المدينة . أنت إذن تريد تصحيح التاريخ . بينما هم يريدون فقط إنتاج مسلسل مربح . انه عمل . استثمار . إنتاج وتوزيع وأرباح (بزنس بزنس) . متى ستفهم .

ـ ألست سيفا !؟. سألته وأنا أكاد أتمزق غيضا .

ـــ لا .. لا بالطبع . لو كنت سيفا حقيقيا لما أحضروك الى هنا. للأسف الشديد فالسيوف الحقيقية لم تعد موجودة إلا في المتاحف . انتبه جيدا لسلوكك والا فانك ستنتهي بسرعة . من حسن حظك انك قد حصلت بسرعة على دور ما . لم يعد احد يهتم بالمسلسلات التاريخية هذه الأيام . قد تنام طويلا في هذا المخزن . وقد يحالفك الحظ وتعلق على جدران غرفة فاخرة في مسلسل حديث . لن تكون عندها حتى اكسوارا يدويا. ستصبح قطعه ديكور ثابتة وحسب . انكمشت على نفسي وغمرني إحساس كبير بضالتي . إحساس مخز لفني من ذؤابتي وحتى نهاية مقبضي . وكنت أرى الفارس العربي قد خلع درعه وارتدى ملابس عصرية رثة . أحصى دراهمه ووضعها في محفظه جلدية بالية دسها في الجيب الخلفي لبنطاله . محفظة جلدية . محفظة متقشرة من جلد ثعبان . لم امتليء يوما بالنقود . بطني منتفخ دائما بأوراق لا قيمه لها . صور أطفال قد أصبحوا شبابا الآن ولا يكادون يتذكرون وجه أبيهم . أرقام هواتف وإيصالات . كارتات شخصية

حملت معها آمالا عظيمة باءت كلها بالفشل . قصاصات صغيرة لأفكار لم يتح لها أن ترى النور . كان يسير مجرجرا خطاه وكنت استرق النظر الى الشارع من جيبه الخلفي . هل سيسير مسافة طويلة . السيارات الحديثة تملأ الشوارع والفارس العربي يجرجر قدميه متعبا وهو لا يستطيع حتى أن يستأجر سيارة خاصة ليكمل مشواره . كم ملأني بأوراق وقصاصات . وكم مرة جلس وافرغ جوفي من أوراق تحمل خططا ومشاريع محبطة . ثم أشعل النار في هذا كله . لقد ملأني بكل شيء . كل شيء إلا النقود التي كانت تزورني بكميات تافهة وفي أوقات متباعدة . ثم تفارقني بسرعة . هازئة بي . كلكامش . كلكامش . لقد دس في بطني ألف ورقة تحمل هذا الاسم . وها هو ذا العمر يمضي وهو لم يلعب حتى دور اورشنابي . ادوار صغيرة . أجور تافهة . أحلام كبيرة تتلاشى في الهواء . سيفرغني ثانيه ليجري مهاتفاته التي لا تنتهي ولا تجدي. الم ييأس بعد ؟ ما هذا .. إنها يد غريبة .. يد غريبة تمتد نحوي وتلتقطني .. أحاول التشبث بجيب البنطال . أتثنى محاولا تنبيه الفارس الشارد أبدا . لا فائدة .. سرقني احدهم . التقط النقود بسرعة. ثم رماني قرب فتحة تصريف مياه . اه .. محفظة قديمة مسروقة وفارغة وملقاة على قارعة الطريق . ما أقسى نهاية كهذه . ما جدوى الحياة . قد تمر سيارة فوقي فتسحقني وتقضي على آخر أمل لي في حياة طبيعية . ها هي ذي شاحنة تقترب.. ستسحقني وارتاح... سارتاح . ولكن ... لا .. لا لن استسلم أبدا .. ها انذا التف منبرما حول نفسي وأتسلل الى مجرى الماء السفلي . أتسلل مستطيلا بعد أن أفرغت الصور والأوراق وكل الأشياء الأخرى من جوفي . لن أكون محفظة بعد الآن . أنا ثعبان . ثعبان مخيف يزحف ويلدغ .. ولكن مهلا !! ما هذا !! أين أنا ؟؟ وكر افاع أم مجرى مياه . انسللت مبتعدا مرتبكا وسط مجرى قذر مليء بأفاع ضخمة . حاولت ألا أثير انتباههم لكنني فشلت . ارتفعت أصواتهم هازئة مني. أفعى صناعية.. جلد ثعبان صناعي . دمية . اقتربت مني حية كبيرة وحاولت نهشي .. هل تأكل الأفاعي بعضها !! أحسست برعب قاتل. ألقيت نفسي وسط المجرى متلويا ومندفعا بأقصى سرعة بعيدا

عن الحية التي توقفت عن مطاردتي بعد أن أضـــحكت علي الأفاعي جميعها . تردد صـدى ضـحكاتهم في المجرى الطويل المعتم ..كم أحسـست بالخزي . زحفت منكسـرا محني الرأس حتى نهاية المجرى ثم ألقيت نفسـي في المصـب وسـط كومة من الأقذار . انسللت بهدوء وأنا أحاول أن استعيد شكلي القديم . لكنني كنت قد تقشرت تماما بعد هذه المغامرة الفاشلة . طرحت نفسي على صخرة تحت شعاع شمس غريبة .. كنت شعاعا حزينا يشـرق مرغما لينير مسـرح مأسـاة . كنت أشـرق لأنير نهارا يضـطهد فيه عمال غرباء . ينتظرون ظهوري ويقطعون نهارهم كله متحملين حرارتي ليحصلوا على فتات . كنت أشرق فأنير طرقا مسدودة يسلكها كل يوم أسراب من الباحثين عن عمل ما .. أي عمل.. وكنت أشـرق لأحرق رؤوس أشـخاص يائسـين ملّوا البحث والفشـل فاقتعدوا الارصفة حتى ملتهم . كنت أشرق فأنير الدرب أمام أسراب الغرباء الهاربين من رجال شـرطة قسـاة يطاردون الغرباء . كنت شـعاع شـمس يحرق راس تلك العجوز المتشـحة بالسواد مضاعفا ألآمها أكثر وأكثر . عجوز تقتعد الرصيف . آه . بخار الألم يتصاعد . رأسي يكاد يتصدع. أين تذهب الصحة ؟؟ قبل عشرين سنة كنت في الـــ.. الأربعين . كنت املك زوجا وبيتا وأبناء وبنات. والآن... الآن لا املك إلا هذا الصندوق من الورق المقوى وبضـع علب دخان مهربة .. وثلاث بطانيات قديمة في غرفة رطبه اقاسـم فيها أخريات . اقاســمهن الرطوبة والحزن .. أين ذهبت تلك الحياة العريضــة . اهذا كل ما تبقى . وهذه الشمس المهلكة . شمس في الصيف . وبرد في الشتاء .. ما أقسى أرصفة الغربة ! أين شعاع الشمس في فناء المنزل ؟ ين صوت الباب وهو يفتح ؟ صوته وهو يقفل ؟ اين اصــوات الدجاج ؟ اين نباح الكلب ؟ أين الزوج يدخل متعبا فتســعده رائحة الخبز ؟ اين اصواتهم ؟؟ أين أصواتهم تنادي (يمّـه). لم اعد اسمع الا ابواق السيارات . جفّت الســماء . وجف النهير.. ومات الزوج .. وضـــاع الاولاد . ولم يبق إلا هذا الصـندوق. وتلك البطانيات. ورطوبة الغرفة والغربة وشريكاتي في السكن والحزن .. لماذا يتأخر الموت هذه الأيام ؟؟ لماذا يزداد الالم؟؟ هل تعوّد الموت ســرقة الصــغار

ونسينا نحن ؟ هل سأموت على هذا الرصيف ؟ من سيدفنني .. واين؟. من سيبكيني ؟ الألم يفتك برأسي.. هل .. حذاء شرطي يضرب الصندوق. تتطاير علب السكائر في كل مكان.. لا. لا. لا. قلت وانا أدور كزوبعة ثم اتجمد فاتحا ذراعاي كشـــجرة ميتة. كانت دموعي حمراء.. كنت ابكي دما غزيرا قانيا. اقترب مني كلب وبدأ يلعق دموعي اقترب كلب آخر وآخر كشر احدهم عن انيابه وغرسها في جذعي ـــ بعد أن استأذنني ـــ بدأت الكلاب الاخرى بالنهش بعد أن تركت اللعق. وكان دمي يتدفق.. سأنزف حتى الموت.. سأموت.. سأرتاح. استمر النزيف لكنني لم أمت . كم دام وقوفي . يوما . اثنين . شهر . عشـرة أعوام . دماء . دماء في كل مكان . ليسـت أي دماء .. إنها دمائي . تقدم رجال مكممون . بملابس وقفازات بيض اخذوا عينات عديدة من الدماء . سيدرسوه ويحللوه ليكتشفوا الأسرار ويستخلصوا العبر ويصدروا التوصيات . استمر اللعق والنهش والنزف وبقيت واقفا . جاء رسام ووضع مسنده وثبت قماشته وبدأ يرسم . حركت رأسي يمنة ويسرة .. لم اعد أستطيع الحياة .. لم اعد أريد الحياة .. لم اعد احتمل .. لم لا يأتي الموت .. صرخت من أعماقي .. صرخت بلا صوت فالتقطت صرختي عدسة مصور صحفي .. وفي الغد كنت موضوعا صحفيا .. قرأني البعض باهتمام .. نظر آخرون الى صوري بتقزز أو بحزن أو بقلق . أسعدت الصور آخرين .. أصبحت جراحاتي حديث الساعة .

ساعة واحدة فحسب .. انتهت مني الصحافة بسرعة لكن عدسات أخرى اكبر كانت قد اقتربت مني وأمسكت بي وبجروحي . ظننت للحظة أن أملا ما قد لاح أخيرا .. وأن احد ما ولسبب ما سيقوم بفعل شيء ما ..

وجدتني اجلس على كرسي مرتفع أمام مذيع شهير في غاية الأناقة وسط غرفة تسجيل فاخرة ((نحن على الهواء)) قال المذيع ثم بدأ بتقديمي للمشاهدين شارحا لهم كل الفرضيات والاحتمالات التي قد تكون سببا لظهور القروح في مؤخرتي . نظرت الى شاشات التلفاز الموجودة أمامي . لم يكن عليها صورة المذيع . ولا صورتي .

كانت الشاشة تعرض صورة أدركت أنها صورة مؤخرتي العارية المتقرحة . نظرت الى جســـدي . كنت عاريا تماما . فكرت بهدوء .. أنا عار تماما أمام عدســـات تبث صورتي لملايين المشاهدين .. تبث الصورة مباشرة .. على الهواء ... فهمت ما يحدث وأنا في منتهى الهدوء . وبعد أن فهمت تماما ما يحدث - وكنت ماأزال بمنتهى الهدوء - صقعت ..صعقت ووقفت صارخا فانتقلت العدسات لتصور عورتي . غطيتها بكلتا يدي فعادت الكاميرات لتبث صـــورة مؤخرتي . جلســـت .. لكن المخرج كان قد ثبت عدسات دقيقة في المقعد واستمر بث اللقطه ذاتها .

ـــ اهدأ .. اهدأ من فضلك ودعنا نطرح قضيتك بموضوعية وبشكل علمي قال المذيع الانيق

لم يكن بإمكاني أن اهدأ .. ولا أن أناقش القضـــية بموضـــوعية.. لا ولم يكن بإمكاني مغادرة المقعد أو فعل أي شيء آخر . كان هناك قوة هائلة تشلني . تمنعني من الحركة أو مغادرة المكان

ـ اوقفوا البث .. صرخت مهددا .

ـ اهدأ قليلا .. فلا بد أن تكون البداية هادئة . ثم لا بأس بعد ذلك من تسخين العرض .

ـ أي عرض .؟ أنا .. أنا عار أمام الملايين .

ـــ هذا هو المطلوب تماما . فنحن في هذا البرنامج نقدم للمشاهدين الحقيقة عارية . هذا هو واجبنا المقدس . وهذا هو ما عودنا المشاهدين الكرام على تقديمه .

ـ لقد أردت أن اشرح للجميع ...

ـ ليس المهم ما تريده أنت . ما يهمنا أكثر هو الحقيقة . الحقيقة بلا أي رتوش .

ـ هذا لا يليق . لايليق . اوقفوا البث . صرخت بتوسل .

ـ حسنا سنوقف البث للحظات . ونواصل البرنامج بعد فاصل إعلاني قصير .

حاولت جاهدا مغادرة مكاني .. إلا أن الفاصل انتهى وأنا ما زلت مسمرا على المقعد .

ـــ لماذا تخاف من المكاشفة . من حق الجماهير أن ترى الحقائق كاملة . أن تطلع على كل شـــيء بمنتهى الوضـــوح . بمنتهى الشـــفافية. وعندها فقط ســـتعرف الحقائق وربما ربما توصلنا الى حل ..

ـ أرجوك .. صرخت وأنا أوشك على البكاء .. كنت أدرك حجم العار الذي يلحق بي .

ـ أنت مسؤول عن هذه البثور والتقرحات التي تغطي ردفيك .

نظرت إلى جســـدي . كـان مليئـا بـالنـدب والجروح والطعنـات وآثـار الأنيـاب . لكن الكاميرات بقيت تصور أردافي . أردافي وحسب .. ياللعار .

ـ هل تحس بالخجل .. سألني ببرود مهني فأجبته بالإيجاب .

ـــ أما زلت تعتقد أن أحدا ما كان سببا لكل هذا .. هززت رأسي موافقا . التفت صوب المشاهدين وانفجر متحدثا بسرعة عن ألعقلية العربية المشبعة بنظرية المؤامرة . والتي تلقي بكل المسؤوليات والهزائم والنكبات على عاتق قوى مبهمة غير مشخصة أو محددة . قوى ليس لهـا وجود إلا في خيـالنـا العربي المريض بـدأت أجراس الهواتف ترن . اقترح احدهم علي اسم طبيب متخصص في معالجة الأمراض الجلدية . بينما تبرع ثان بسروال مستعمل - ولكنه في حالة جيده كما قال - مساهمة منه في التخفيف عن معاناتي . اتصـل ثالث وطالب المسـلمين بجلدي لأنني أظهرت ما لاينبغي إظهاره من جسـمي. أوقف البرنامج ثانية وتم عرض إعلان عن البشرة الصـحية. تتابعت الاتصـالات وكنت قد بدأت استسلم لما يجري . لم أكن أستطيع الحراك عن المقعد . لم أكن أستطيع ارتداء قطعه ملابس واحدة .ولم أكن أستطيع بالطبع إيقاف التصوير . ولم تتح لي حتى فرصة لقول كلمة واحدة مما كنت أريد قوله . اتصل مشاهد وقال أن بلاهتي الشديدة كانت سببا لما حدث لي. وأنا اســـتحق كل ما حدث ويحدث وســـيحدث لي . كان المخرج قد بدأ يعرض صـورة وجهي المكتسـي بملامح عجيبة بالتناوب مع صـورة مؤخرتي . اتصـل آخر وقال إن الجراح وفقر الدم هي ســـبب البلاهة وليس العكس . وان علاجها ســـيعيد بعض الحيوية لذهني الكليل .. واقترح علي اسـم مداو بالأعشـاب الطبيعية سـيسـعده أن

يحاول شفائي . استمر البرنامج وكان المذيع في غاية السعادة لكثافة الاتصالات - ولا سيما بعد أن اتصل بالبرنامج أكثر من وزير سابق - . كان من الواضح أن الحلقة قد حققت النجاح المطلوب .

فجأة شعرت بسعادة كبيرة حينما أدركت أن بامكاني أن اجمع اللعاب في فمي . استمر المذيع في حديثه . كان كلامه متصلا فصيحا لبقا نظم فيه وجهة نظره التي كونها بالمشاركة مع الجمهور.. والتي تتلخص بمسؤوليتي الكاملة عن كل الشرور التي حدثت أو ستحدث في هذا الكون .. بسبب جهلي. وغبائي وطموحي اللا مشروع . واتكالي على عقليه أسطورية . ولعدم إدراكي لأهمية الغلاسنوست .موضحا في الوقت ذاته الجهود المضنية التي بذلها في سبيل تقديم هذه الحلقة التي أسعدت مشاهدي قناته الفضائية المهمة . وبصمت كامل . كنت قد ملأت فمي باللعاب بصقت بقوة فأصابت ألبصقة وجه المذيع إصابة مباشرة . لم يرتبك . ولم يتفاجأ . لابل اعتبر بصقتي دليلا ماديا حيا على صحة استنتاجاته. أوقف المخرج التصوير وهنّأ المذيع اللبق على نجاحهما الساحق . اخبره أيضا أن عددا كبيرا من المعلنين قد اتصل ليحجز وقتا إعلانيا في الحلقات القادمة . بحثت عن حذاء لاضربهما لكنني كنت حافيا وبعد دقائق كنت مقذوفا خارج المكان .

ـ ماما هل هذا طرزان ؟ قال طفل لإمه وهو ينظر إلي بدهشة وفضول

ـ هيا . طرزان ليس أجربا . قالت وهي تسحب الطفل بعيدا .

وجدتني وسط غابة كثيفة . أشجارها هائلة الحجم عميقة الجذور . بحثت عبثا عن شجرة يقطين لأغطي جروحي بأوراقها .. لم يكن هناك إلا الأشجار العملاقة . أشجار بأوراق على شكل عيون أو أفواه.. عيون خضر أو زرق أو صفر .. وأفواه صامتة أو متحركة . تصدر طنينا غريبا.. سرت طويلا بين الجذوع الهائلة . وكان الدم مايزال يتدفق من جراحي . حاولت إيجاد منفذ ما . كان الوقت يمضي وكنت اشعر بالإنهاك . بدأت أتعثر وأنا أجرجر قدمي بحثا عن مخرج . لم اعد أستطيع السير . ولم أكن أستطيع أن ارتاح

. كان علي أن أواصل مسيرتي وأنا أكاد أموت نزفا وتعبا وضياعا وخوفا.. صرخت متألما بأعلى صـــوتي . خرجت صـــرختي عواء طويلا كعواء حيوان كاســـر جريح . انقطع طنين الأوراق وحدقت بي العيون الملونة بدهشـــة . أغمضـــت العيون أجفانها ثم فتحتها ثانية وقد قررت تجاهل وجودي تماما . عاد الطنين ثانية فاســتجمعت قواي كلها وركضت دون وعي . ركضت ركضت حتى تقطعت أنفاسي . ومع كل خطوة أخطوها كان ألمي يزداد ، وكان دمي ينزف تاركا أثارا طويلة تمتد خلفي على ارض الغابة . شعرت بيأس كامل .. رفعت رأسي الى أعلى وعويت ثانية فانقطع الطنين ونظرت إلي العيون الملونة بغضب حقيقي. تحركت شجرة وامتدت نحوي أغصان طويلة أمسكت بمعصـــمي وقيدتني الى جذع شـــجر ضـــخم خشـــن اللحاء . حاولت عبثا التخلص من الأغصـــان لكنني فشـلت .. فجأة . انتبهت إلى أن الجذع الضـخم بأكمله يهتز لحركتي . واصـــلت هز الشـــجرة الضـــخمة فلم أتمكن من اقتلاعها . لكن أغصـــانها بدأت تحتك ببعضـها البعض . واصـلت تحريك الجذع بكل ما املك من قوة حتى لحظت خيط دخان يتصـاعد من الأغصـان السفلية .. حركت الشجرة بجنون فارتفع لسان لهب صـغير بدأ ينتشر وينتشر ويحرق الأغصان .. للحظات قصيرة . أحسست بفرح. فرح طاغ . ثم ما لبثت أن أدركت حجم الورطة التي أوقعت نفســـي فيها . فقد كنت مقيدا تماما الى تلك الشجرة . وكان علي أن اقطع الأغصـان التي تكبلني أو أن اقطع جذع الشجرة . أو كان علي أن اقطع كفي لا تحرر .؟ بقيت أتحرك وأحاول فعل شـيء ما . لكن النار المتسعة امتدت وتســـارعت والتهمت فرعا كاملا . نظرت الى أعلى . كان الغصـــن الملتهب يهوي . وكانت النار تسـقط باتجاهي تماما . شـاهدتها تقترب مني وأنا عاجز تماما عن الحركة . سـقطت جمرات فأصـابت عيوني .. عيناي.. عيناي .. لقد فقدت بصـري . أنا أعمى . يـا أللهَ .. لمـاذا . ! لمـاذا ؟! يـا إلهي .. يـا الهي هل تخليت عني ؟؟ لا . دوى صوت عميق عريض هز الغابة .. لا .. صرخت منتصبا لـــ ... لا فاجأ بنفسي جالسا على سـريري وحيدا في غرفتي الصـغيرة .. أدرت نظري بسـرعة فيما حولي . ها انذا

أبصـــر . أبصـــر .. وهذه هي غرفتي . هذه صـــورة أولادي .كتبي . أوراقي . خزانتي المعدنية الصـغيرة والكرسـي والمنضـدة .؟ كل شـيء في مكانه تماما . لقد ... لقد كنت احلم.. احلم فحســب . أهذا هو الحلم الذي كنت انتظره طويلا ؟؟ كانت الأوراق الفارغة ما تزال موضـــوعة الى جانبي .. صـــفراء متســـخة . مزقتها وألقيتها بغضـــب فتناثرت مغطية أرضـية الغرفة الجرداء . نهضـت وغسـلت رأسـي بماء بارد .. كانت الشـمس توشك أن تنهي رحلتها اليومية في السماء . ما أغرب أحلام القيلولة.. لا سيما بعد غداء ثقيل .. معادلة صعبة.. الطعمية .. ومعدتي المتحدرة من أصول أرستقراطية.

شربت قدح ماء بارد ثم عدت فجلست على حافة سريري محاولا استرجاع تفاصيل الحلم الذي شـاهدته . لاحت مني التفاتة الى الصـورة . صـورة ولداي وهما يلوحان لي . لوحت لهما بحزن . كم اشـتقت اليهما .. الى متى سـأبقى بعيدا عنهما .. آلاف الأميال تباعد بيني وبينهم . ســـافرت لأجلهما . فخســـرت طفولتهما . اهذه هي الحياة التي كنا ننتظرها .!؟

شـــعرت بكآبة تحتوي وجودي كله .. الحلم .. مازالت آثاره عالقة في نفســـي . أبدلت ملابسـي وسـرت على مهل حتى وصـلت الى مسـجد صـغير في ضـاحية المدينة. كان المصـلون يغادرون المسـجد بعد أن انهوا صـلاة المغرب . ولم يكن قد بقي في المسـجد إلا كهل ضـئيل الجسم يرتدي ثوبا بسيطا ابيض اللون و يجلس متربعا وقد اسند ظهره إلى احد أعمدة المسـجد . كان هو بالذات من جئت باحثا عنه . صـليت منفردا ثم اقتربت منه بهدوء . نظر إلي بوجه جامد . كانت بشـرته بيضـاء لامعة وعيناه قاسـيتان اصـفرّ بياضـهما، مد لي ببطء شديد يدا مرتعشة. رد على تحيتي بصـوت عميق . جلست قبالته منكس الرأس . لاحظ ارتباكي وطول صـــمتي فهمس قائلا ((إن في صـــدرك حرجا وضيقا)).

ـ لقد رأيت حلما غريبا .

ـ لطالما أتى الحالمون الى هذا المسجد . خير تؤتاه وشر تتوقاه بإذن الله . اقصص علي حلمك إذا شئت .

ـ أنه حلم غريب .. لا اعرف من أين ابدأ .. ربما لن أستطيع أن أتذكر كل تفاصيل الحلم .

ـــ اعلم يا ولدي أن الرؤيا ثلاث . فرؤيا : بشرى من الله تعالى. ورؤيا : من الشيطان . ورؤيا : مما يحدث به الإنسان نفسه . فأن رأيت الأصول صحيحة وفي خلالها أمور لا تنظم. ألغيت حشوها وقصدت الصحيح منها . وإن رأيت الرؤيا كلها مختلطة لا تلتئم على أصول فاعلم أنها من الأضغاث واعرض عنها . وان اشتبه الأمر عليك فادع الله تعالى أن يكشفه .

ـ لا ادري !! لا ادري أين أضع حلمي من هذا كله . لست اعرف تماما أين الحشو وأين الأصول. لكني لا أظن أن ما رأيته كان مجرد أضغاث. وأسال الله تعالى أن يكشفه لي .

ـــ يا ولدي . قال ص ((إذا اقترب الزمان تكدرت رؤيا المسلم)) وقد اقترب الزمان .. اقترب أكثر مما تظن . لعلك قد حلمت بسمكة ؟

ـــ سمكة !؟ استرجعت ما علق في ذهني من صور .. كنت قد رأيت جرذانا .. وحميرا وتمساحا و .. أفعى .. هل رأيت سمكة ؟؟

ـــ كلهم يحلمون بالسمك هذه الأيام . والسمك إذا كان طريا كبارا كثير العدد فهو أموال وغنيمة لمن أصابه . ومن أصاب سمكة طرية أو اثنتين أصاب امرأة أو امرأتين . فأن أصاب في بطن السمكة لؤلؤة فانه يصيب من امرأة غلاما . وأن أصاب في بطن سمكة شحما، أصاب من امرأة مالا وخيرا . ومن رأى سمكة خرجت من ذكره ولدت له بنت . والسمكة الطرية الحية امرأة باكر . لتكن أحلامك مثل أحلامهم . إن ذلك أسهل لك بكثير .. أسهل بكثير .

مد يده بهدوء ليمسك كانونا خزفيا موضوعا أمامه . كان فيه بضع جمرات أوشكت أن تنطفيء تحت الرماد . تحسس المكان بيديه بحثا عن الكانون . كان جامد العينين.

أرعبني أن اكتشف أنه أعمى . وأنني لم الحظ ذلك طوال الوقت . امسك أخيرا بالكانون وقربه قليلا منه وانحنى نافخا بهدوء على الجمرات . توهجت قليلا وتطاير رماد ناعم بدأت ذراته تنتشـــر حولنا . نفخ نفخة طويلة ظننت أنها لن تنتهي. بدأ وجهه يســـتطيل ويتشـــوه ثم يتلاشـــى ولم اعد أميز من ملامحه إلا الفم النافخ . اســـتمر الرماد يتطاير ويتطاير حتى تعذر علي رؤية أي شيء إلا الجمرات المتوهجة .. تملكني خوف شديد . راحت ذرات الرماد تتماوج حولي وبدأت اســـمع هديرا غريبا . ميزت اذناي صـــوت نوارس . ثم ارتفع هدير موجات تتلاطم وسط بحر هائج .. وكنت اسبح وسط الأمواج وحيدا ضعيفا خائفا . وكنت اسبح وسط الأمواج وحيدا غاضبا جائعا . حركت زعانفي وسبحت مسرعا وأنا اشعر بخوف شديد؛ فقد كان هناك من يطاردني . حركت زعانفي وسبحت مسرعا وأنا اشعر بجوع شديد ؛ وقد كان هناك من أطارده . كنت سمكة خائفة هاربة مطاردة . وكنت سمكة جائعة تطارد أخرى هاربة. كنت سمكة تطارد سمكة . كنت الاثنتين معا .

اقتربت مني وخوفي قد بلغ ذروته .

اقتربت مني وجوعي قد بلغ ذروته .

قفزت فلم أتمكن من الإفلات .

وقفزت فتمكنت من الافتراس .

شعرت بألم حاد .. كان لحمي يتمزق بين أنياب قاسية .

وكانت أنيابي القاسية تمزق لحم سمكة صغيرة .

كنت أمزقني . أمزقني وأنا أرى فتات لحمي الأبيض تتناثر هنا وهناك . كان الدم ينبثق احمر قانيا .. ثم تغســـله الأمواج فيتلاشـــى ... وبعيون مفتوحة وســـكون رهيب كنت أفترس ... وبعيون مفتوحة وسكون كامل كنت أُفترس .

أنهش وأُنهش .

والدم .

كان الدم ينبثق احمر قانيا .

ثم تغسله الامواج فيتلاشى ..

يـتـلاشـــى

يـــ . تـــ ..لا شـــاااااا

ليبيا – زليتن

2002/1/30